

الشعر في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم)

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرة⁽¹⁾، ومن ثم كنا نخرج دريد بن الصّمّة والأعشى وأمّية ابن أبي الصلت والأسود بن يعفر النهشلي وأضرابهم من سلك المخضرمين وبنظمتهم في سلك الجاهليين، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمّ الله عليهم نعمة الإسلام.

قد بينا في المحاضرة السابقة ان الاسلام لم يحرم الشعر كله ، بل حرّم الفواحش وكل ما لا يتوافق مع الاسلام ، فالشعر في هذه الحقبة احتفظ بمكانته ، رغم استسلام العرب لبلاغة القرآن الكريم وانبهارهم بأسلوبه الجميل الذي عجزوا عن مجارته ، غير ان القصيدة العربية طرأ عليها بعض التطور والتغير وسارت في اتجاهين :

الأول الاتجاه التقليدي: ويشتمل على الاغراض المعروفة كالمديح ،والهجاء، والرثاء، والفخر، والغزل. وهي اغراض استمرت في عصر النبوة والخلافة الراشدة وتأثرت بالإسلام ، تأثراً متفاوتاً فلكل شاعرٍ نصيب من هذا التأثير فمنهم من جاءت اغراضه طافحة بالافكار الاسلامية كعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، ومنهم من استمر على نهج الجاهلية في اشعاره ولا سيما شعراء البادية كالحطيئة ، وابن مقبل ، والشماخ بن ضرار ، ومع ذلك نجد في بعض ابياتهم ما يدل على تأثرهم بالاسلام .وهذا يدحض الفكرة التي شاعت بين الباحثين عربا ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثارا عميقة في نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعا.

(1) المخضرمون: يسلك اللغويون وبعض الادباء في تعريف الخضرة مسلماً زمنياً ، فقيل: المخضرم، والمخضرمة ، وهو من عاش نصف عمره في الجاهلية، ونصفه في الاسلام، ثم اطلق على كل من ادرك دولتين .

الثاني الاتجاه الجديد (الشعر العقدي)

ظل الشعر يصور حياة الناس ويسيل على السنة الشعراء عذبا رقيقاً ، حيث يستوعب همومهم ، ويعبر عما يجيش في صدورهم ، او يدور في افكارهم ، فلم يبق احد من اصحاب رسول الله الا وقد قال الشعر او تمثل به . واستحدثت حياتهم الجديدة اغراضاً جديدة وقد كان الشعر الديني من ابرز الاغراض الجديدة ، حيث بدأ الشعراء يتحدثون عن عقائد الدين ، ومثله العليا ، ويدعون الى التمسك بها والتحلي بما تدعو له ، وهو لون جديد من الشعر لم يكن دين العرب قبل الاسلام يستوعب ان يتحدثوا عنه بغرض شعري خالص . وقد تحدث الشعراء في هذا الغرض عن وحدانية الله ، وعن الوحي ، والنبوة ، وعن عقيدة الخلق ، وعن الموت والبعث ، والحساب ، وعن الثواب والعقاب ، والجنة والنار ، والحلال والحرام . ومن اهم هذه الاغراض الجديدة :

١- الايمان بوحداية الله وبالرسل والانبياء

فالاسلام يدعو مثلاً الى الى الايمان بالانبياء وبرسل الله الذين بعثهم للناس
قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَٰئِكَتِهٖٓ وَكُتُبِهٖٓ وَرُسُلِهٖٓ لَآ نُفَرِّقُ بَيْنَ ءَاحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهٖٓ
وَقَالُوۡا سَمِعْنَا وَاَطَعْنَا غُفْرٰنَكَ رَبَّنَا وَاِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴿٢٨٥﴾ البقرة . وقد تناول حسان هذا الايمان
بقوله:

رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مِنْ عَالٍ	شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا
لَهُ عَمَلٌ فِي دِينِهِ مُتَقَبَّلٌ	وَأَنَّ أَبَا يَحْيَىٰ وَيَحْيَىٰ كِلَيْهِمَا
وَمَنْ دَانَهَا فِئْلٌ مِنَ الْخَيْرِ مَعَزِلٌ	وَأَنَّ الَّتِي بِالسُّدِّ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ
رَسُولٌ أَتَىٰ مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مَرْسَلٌ	وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودَ ابْنَ مَرِيَمَ
يُجَاهِدُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَيَعْدِلُ	وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ يَعْذِلُونَهُ

فهذه الابيات تشير الى وحدانية الله تعالى والايان برسله جميعاً دون تفريق وانهم مرسلون من الله تعالى ، فهي فكرة جديدة لم يسبق ان تطرق اليها الشعراء قبل الاسلام ، فالالفاظ واضحة لا تعقيد فيها ، وفكرتها تدور حول الايمان بالرسل والانبياء .

٢- شعر النصح والارشاد:

من الموضوعات التي دعا اليها الاسلام وحث على الالتزام بها وتنفيذها ، وهي فضيلة استلهمها الشعراء من قوله تعالى: ﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (١٦٥) الخجل واكدها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (الدين النصيحة) وتعد لامية صرمة بن ابي انس الانصاري في طليعة تلك الاشعار اذ يقول:

يا بني الأرحام لا تقطعوها	وصلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله في ضعاف اليتامى	ربما يستحيل غير الحلال
واعلموا ان لليتيم ولياً	عالماً يهتدي بغير السؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه	إن مال اليتيم يرعاه وإل

٣- التبرئة من المشركين:

وهي ابيات يدعو من خلالها الشعراء الى إعلان الاسلام والبراءة من الشرك وعبادة الاصنام قال ذباب بن الحارث السعدي التميمي:

تبعث رسول الله اذ جاء بالهدى	وخلفت فراضاً بدار هوان
شددت عليه شدة فتركته	كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
فلما رأيتُ الله اظهر دينه	اجبتُ رسول الله حين دعاني

فالشاعر يعلن اسلامه صراحة ويلتحق بركب المسلمين بعد ان حطم صنمه(فراض)

٤- الرد على المرتدين:

إذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت ملحمة كبيرة فإن

معركة الردة هي الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة، بعضها كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً

من مثل قول الحارث بن مرة في وعظه لبنى عامر في قوله:

بنى عامر إن تنصروا الله تنصروا وإن تنصروا الله والدين تخذلوا
وإن تهزموا لا ينجكم منه مهرب وإن تثبتوا للقوم والله تقتلوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول أوس بن
بجير الطائي فى موقعة بزاخة:

وليت أبا بكر يرى من سيوفنا وما تختلى من أذرع ورقاب
ألم تر أن الله لا ربّ غيره يصبّ على الكفار سوط عذاب

ويتألم شاعر آخر فيتحسر على ردة قبيلته ، واتباعهم دعوة طليحة الكذاب فيقول:

لهفي على اسدٍ أضل سبيلهم بعد النبي طليحة الكذاب

٥- شعر الفتوح:

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون فى سبيل الله دولتى الفرس
والروم. فقتلوا على الأولى، واستولوا على أهم ولايتين للثانية، وهما الشام ومصر.
وكانوا فى أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية، يتغنون فيها بانتصاراتهم
ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدّون لله ودينه. ومن الصعب أن نعرض كل ما نظموه
فى مواقعهم المختلفة، إنما نلم بطرف منه، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة فى الشرق
هى موقعة القادسية، وفيها يلمع اسم أبى محجن الثقفى وكان مولعا بالخمير فحبسه
سعد بن أبى وقاص، حتى إذا احتدمت المعركة توّسل إلى سلمى زوج سعد أن
تطلقه-على أن يعود إلى قيده- ليسهم فى شرف المعركة، فأطلقته وأبلى فيها بلاء
حسنا، وعاد إلى سجنه وهو ينشد:

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا

فإن أحبس فقد عرفوا بلائى وإن أطلق أجرعهم حتوفا

وكان حول أبى محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا بروع أبطالهم، وهم
يتصايحون بالشعر الحماسى، منهم عمرو بن معديكرب الزبيدى ، وكان من أبطال
الجاهلية وفرسانها وأسلم، وكانت له آثار مشهورة فى القادسية واليرموك ونهاوند،
ومن شعره:

والقادسية حين زاحم رستم كنا الحماة بهنّ كالأشطان

الضاريين بكل أبيض مخدم والطاعنين مجامع الأضغان

وممن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح المرادى ابن أخت عمرو بن معديكرب، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس فى تلك المعارك، وله يصور ذلك

جلبت الخيل من صنعاء تردى بكل مدجج كالليث سامى
إلى وادى القرى فديار كلب إلى اليرموك فالبلد الشامى
وجئن القادسيّة بعد شهر مسومة، دوابرها دوامى
فناهضنا هناك جمع كسرى وأبناء المرابزة الكرام
فلما أن رأيت الخيل جالت قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعا بسيف لا أفلّ ولا كهام
وقد أبلى الإله هناك خيرا وفعل الخير عند الله نامى

اهم مميزات شعر الفتوح

١- أنها طبعت بطابع الآداب الشعبية، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم. أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التى نسبت فى العصر نفسه إلى الشعراء المجودين، وأما من حيث القائلون فإن كثيرا منهم يكاد يكون مجهولا، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند. ومن ثمّ اختلف الرواة فى نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها.

٢- ان مجموعة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التى يبدعها الشعب، فناظمها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذكروا أو مجدوا بل إنه لا يعنيه أن يذكروا أو يمجدوا، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل.

٣- ويسود فى هذا الشعر الإيجاز، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة، يجرى فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق فى معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية. إنه يعبر عن خاطر التحم بصدرة

دون معاناة أو مكابدة، ويرمى به فى سرعة كما يرمى بسهمه أو يضرب بسيفه، غير مفكر فى تنقيح ولا فى تصفية أو تهذيب، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التى تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره.

٤- وملاحظة أخيرة، وهى أن قصصا كثيرا عن أبطال الفتوح وجهادهم فى حروب الفرس والروم أضيف إلى هذه الأشعار. وقد حمل لنا ياقوت فى معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافا منه كثيرة. ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القصاص فزادوا فى القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم .

٦- شعر المقعدين الشيوخ:

من الصور الانسانية الرائعة التى ظهرت فى شعر عصر صدر الاسلام وهى الاشعار قالها المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما الذين يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم، على نحو ما يصور لنا ذلك المخبل السعدي فى قوله:

أُيْهِلِكُنِي شَيْبَانُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ	لِقَلْبِي مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ وَجَيْبُ
أَشْيَابَانُ مَا أَدْرَاكَ أَنْ كُلُّ لَيْلَةٍ	غَبَقْتُكَ فِيهَا وَالْغَبُوقُ حَبِيبُ
غَبَقْتُكَ عَظْمَاهَا سَنَاماً أَوْ إِنْبَرَى	بِرِزْقِكَ بَرَّاقُ الْمُتَوْنِ أَرِيْبُ
أَشْيَابَانُ إِنْ تَأْبَى الْجُيُوشُ بِحَدِّهِمْ	يُقَاسُونَ أَيَّاماً لَهْنٌ خُطُوبُ
وَلَا هَمَّ إِلَّا الْبِزُّ أَوْ كُلُّ سَابِحٍ	عَلَيْهِ فَتَى شَاكِي السِّلَاحِ نَجِيبُ
يَذُودُونَ جُنْدَ الْهَرْمِزَانِ كَأَنَّمَا	يَذُودُونَ أُرَادَ الْكِلَابِ تَلُوبُ
فَإِنْ يَكُ غُصْنِي أَصْبَحَ الْيَوْمَ ذَاوِيَاً	وَعُصْنُكَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ رَطِيبُ

فَأَنِّي حَنَّتْ ظَهْرِي خُطُوبٌ تَتَابَعَتْ فَمَشِييَ ضَعِيفٌ فِي الرِّجَالِ دَبِيبُ
وَمَا لِلْعِظَامِ الرَّاجِفَاتِ مِنَ الْبِلى دَوَاءٌ وَمَا لِلرُّكْبَتَيْنِ طَبِيبُ
إِذَا قَالَ صَحْبِي يَا رَبِيعُ أَلَا تَرَى أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَيْنِ وَهُوَ قَرِيبُ
فَلَا يُعْجِبُكَ الْمَرَّةُ إِنْ كَانَ ذَا غِنَى سَتَّ تَرَكُّهُ الْأَيَّامُ وَهُوَ حَرِيبُ
وَكَأَنَّ تَرَى فِي النَّاسِ مِنْ ذِي بَشَاشَةٍ وَمَنْ شَأْنُهُ الْإِقْتَارُ وَهُوَ نَجِيبُ
وَيُخْبِرُنِي شَيْبَانُ أَنْ لَنْ يَغْفَنِي تَعُوقُ إِذَا فَارَقْتَنِي وَتَحُوبُ
فَلَا تُدْخِلَنَّ الدَّهْرَ قَبْرَكَ حَوْبَةً يَقُومُ بِهَا يَوْمًا عَلَيْكَ حَسِيبُ

٧- شعر الشكوى :

شكى بعضُ الجنودِ من الولاية والعمال حين يخونون فيما ائتمنوا عليه، وقد استغل بعض الولاية مناصبهم ، وخرجوا على قاعدة الامانة والنزاهة اللتين يفترض ان يتحلوا بهما فلم يسكت الشعراء على تصرفاتهم بل كانوا يرسلون للخلفاء سوء فعلهم وخيانتهم للامانة ، وكانوا يسعون الى تحقيق مبدأ العدالة في تقسيم الاموال ، وهم يصدرون في كل ذلك عن روح الاسلام وتعاليمه التي تؤكد الامانة وتحت على النزاهة وعفة اليد وهذا ما نجده عند يزيد بن الصَّعق، فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أصحاب الخراج، يقص عليه كيف أثروا ثراء غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها ومما يأخذون لأنفسهم من المغازى :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة فأنت أمين الله في النهي و الأمر
وَأنت أمين الله فينا و من يكن أمينا لربِّ العرش يسلم له صدري

فلا تدعن أهل الرّساتيقي و القرى يسيغون مال الله في الأدم الوفر

فأرسل إلى الحجّاج فاعرف حسابه وأرسل إلى جزء و أرسل إلى بشر

ولا تنسينّ النّافعين كلاهما ولا ابن غلاب من سراة بني نصر

وما عاصم منها بصغر عناية وذاك الذي في السّوق مولى بني بدر

وأرسل إلى النّعمان فاعرف حسابه و صهر بني غزوان إنّي لذو خبر

وشبلا فسله المال و ابن محرّش فقد كان في أهل الرّساتيقي ذا ذكر

فقاسمهم، نفسي فداؤك، إنهم سيرضون إن قاسمتهم منك بالشّطر

ولا تدعوني للشّهادة إنني أغيب، و لكنّي أرى عجب الدّهر

نئوب إذا أبوا و نغزو إذا غزوا فإنّ لهم وفرا و لسنا ذوي وفر

فقاسم الخليفة عمر بن الخطاب هؤلاء الذين ذكروهم الشاعر شطر اموالهم.
وهكذا نجد ان الشعراء لم يقفوا موقف المتفرج الصامت وهم يرون بعض العمال
والولاة يميلون عن الحق ، او يتبعون الهوى ، او يجورون على من في امرتهم من
ضعاف المسلمين وفقرائهم ، فكانت اشعارهم السنة حق تنادي بالعدل وتدعو الى
محاسبة المقصرين ، وتحث على الالتزام بحدود الشريعة ، والنزوع الى معالجة
الواقع.